مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد10 /العدد: 01 (2022)، ص 1352- 1369

أدب السلوك الصوفي في تجربة محي الدين بن عربي

The Etiquette of sufi in the experience of Muhiddin ibn Arabi

د. خديجة بلخير [1]

[1] جامعة ابن خلدون-تيارت (الجزائر)، khadidja.belkheir@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/07 تاريخ القبول: 2022/01/17 تاريخ النشر:2022/01/23

ملخص:

تحاول هذه الورقة العلمية تناول التجربة الروحية لدى محي الدين بن عربي الذي يعد من أكبر مشايخ المتصوفة، وأكثرهم تعمقا في الطريق الصوفي، حيث حدد آداب السلوك وهي عبارة عن منهج تربوي يهذب النفس ويزكيها وتتمّ عن طريق مراحل يتدرج فيها المتصوف ليتحقق بمقام المحبة والفناء، فالتصوف كله أدب ولكل وقت أدب، وتهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على التصوف الإسلامي، وكيف أنّه يقوم على أسس وطيدة من الأخلاق، وذلك من خلال تجربة ابن عربي.

الكلمات المفتاحية: تصوف، آداب، سلوك، طريق، أخلاق، تربية.

Abstract:

This scientific paper attempts to address the spiritual experience of Muhiddin ibn Arabi; who is one of the greatest sufi sheikhs; and the most profound of them are in the sufi path ; where he defines etiquette ; which is an educational curriculum; that refines and purifies the soul; and it is completed through stages in which the mystic progresses to achieve the status of love and annihilation. the study aims to shed light on Islamic mysticism and how it is based on solid foundations of morals; through the experience of Ibn Arabi.

Keys words : sufism ; etiquette ;behavior ; way ; morales; education.

المؤلف المرسل: د.خديجة بلخير

1. مقدمة:

يعتبر التصوف علم من علوم الشريعة يختص بالجانب الباطني للإنسان على غرار أصول الفقه الذي يهتم بالجانب الظاهري، فسمي بعلم العبادات في حين لقب التصوف بعلم التزكية، لأنه يهدف إلى تطهير النفس وكبح شهوات البدن، فبناء إنسان فاضل هو المقصد الأول والأخير للمتصوفة، وبه تستقيم العلاقة بينه وبين ربه كلما جاهد نفسه لترتقي من عالم المادة إلى عالم الملكوت.

والطرق إلى الله تتعدد بتعدد الأنفس، فالاستقامة والتحلي بالأخلاق الفاضلة والالتزام بأوامر الله كفيلة للتحقق بمقام القرب، ويعد محيي الدين بن عربي شيخ المشايخ كما يلقب أحد أعمدة التصوف في التراث الإسلامي، حيث كان نابغة عصره لما وصله من علم ومعرفة خصوصا في مجال التصوف واعتبر أن السلوك يقوم على مبادئ وأساسيات لابد من السالك التحقق بها، فهو في سفر روحي إلى الله، ومن لا آداب له لا سلوك له، لأن الطريق كله أدب وأخلاق، فكيف تتجلى هذه الآداب في المتن الأكبري؟ وهل هي تختلف من صوفي إلى آخر؟ وما هي الأبعاد التي يسعى إليها المتصوفة في طريقهم الروحي؟

للإجابة على هذه الأسئلة اتبعنا منهجا تحليليا نقديا، حيث قمنا بتفكيك نصوص المتن الأكبري محاولين بذلك الوقوف على مقاصد التربية الروحية التي يمارسها المتصوفة بصفة عامة ومحيي الدين بن عربي خاصة، ومدى تأثيرها اليوم على مجتمعنا الذي يتخبط مع أزمة القيم.

2.ابن عربي والتصوف:

ليس من السهل اعتناق طريق التصوف دون أسباب معيّنة تعد بمثابة إشارات روحانية تستقر في قلب السالك فابن عربي مثلا دفعته ظروف خاصة لخوض تجارب القوم، مع أن شبابه عرف بتلك الحرية التي يتمتع بها كل إنسان شاب في حياته، أي دون قيد إيديولوجي أو اتجاه معيّن، لكن فجأة تنقلب حياته من حالة طبيعية إلى حالة الزهد، فهو يذكر كيف قضى طفولته ومطلع شبابه في رحلات الصيد وورعه للآداب، مع أن محيطه كان كافيا لأنه يجعله زاهدا وعارفا، غير عدم توفر سبب قويّ إلى جانب تلك الظروف لن يهيئه إلى سلوك الطريق القوم.

وهناك مراحل عديدة مرّ بها ابن عربي كانت بمثابة محفز روحي لتصوفه منها :

أولا-الحضور الأنثوي في حياته:

للمرأة دور كبير في حياة ابن عربي ولدى المتصوفة بصفة عامة، فهم يرون الجمال الإلهي في المرأة والمفتاح للطريق إلى الله، ولقد كان لها الفضل الكبير لدى الشيخ الأكبر في طريقه الروحي، حيث كانت أمه امرأة صالحة تقية فربته تربية روحية فاستقام سلوكه وتزكت أخلاقه، ثمّ تزوج بامرأة ورعة أكملت نهج أمه ، كانت تسمّى بمريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي، ويذكر ابن عربي رؤياها التي قصتها عليه فقالت: « رأيت في منامي شخصا كان يتعاهدني في وقائعي..وما رأيت له شخصا قط في عالم الحس..فقال لها: أتقصدني الطريق قالت له: أي والله أقصد الطريق ، ولكن لا أدري بماذا..قالت: فقال لي: بخمسة..وهي " التوكل واليقين-والصبر-والعزيمة –والصدق" » **(ابن عربي محيي الدين، 2003، صفحة 19)** وهذه الرؤيا تبيّن مدى استقامة هذه المرأة، وكيف اختيرت في طريق القوم، وقد أوّل لها ابن عربي الرؤيا بأن ما رأته هو مذهب التصوف.

يشير ابن عربي في أكثر من مرة إلى أهمية المرأة في الوجود، وكيف أنها كائن لطيف خلقه الله لتكمّل حياة الرجل، وخصها بالوَلاية هي الأخرى، ويضرب بذلك على مريم ابنة عمران ورابعة العدوية وفاطمة النيسابوري وغيرهم، فالمرأة تنافس الرجل وقد تفوقه في الورع والتقوى،فلها نصيبها في الحياة الروحانية الكونية.

« ويرجع ابن عربي المرأة إلى جوهرها الأنثوي باعتباره مصدر للوجود، ومنبع العطاء، فهي ليست مشتهاة أو موضع حب، وإنما هي الصورة المثلى بين الصور المتعددة التي يحب فيها الله، لأنها ليست سوى مجلى من المجالي الإلهية، ولأن أساس العبادة وجوهرها هو الحب، والله هو المحبوب والمعبود على الإطلاق» **(بلعلى آمنة، 2010، صفحة 81)**.

وقد نبه ميشيل شودكيفيتيش في إحدى ندواته إلى قيام فكر الحاتمي على ثلاثة محاور: تتمثل في الحقيقة المحمدية، والإنسان الكامل، والأنوثة، وحلل هنري كوربان دور المبدأ الأنثوي في الخيال والخلق والوجود، وساهم ساشيكو موراتا، في إبراز حضور الأنوثة والذكورة عبر تيارات الفكر الإسلامي على غرار الفكر الطاوي، واشتغلت بدرجة أساسية على التصوف متمثلا بفكر ابن عربي ومدرسته فكر جلال الدين الرومي. **(عواضة نزهة، ، 2017، صفحة 10)**.

ثانيا-الابتلاء بالمرض:

يحدثنا ابن عربي في الفتوحات أنه مرض مرضا شديدا في شبابه، وفي « أثناء شدة الحمى رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى البشر، مسلحين يريدون الفتك به، وبغتة رأى شخصا جميلا قويا مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرقّها شذر مذر، ولم يبق منها أي أثر، فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له أنا سورة يس» **(ابن عربي محيي الدين، 2006، صفحة 04)** يقول ابن عربي « فأفقت من غشيتي تلك، وإذا بأبي رحمه الله عند رأسي يبكي وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها، فأخبرته بما شهدته» **(ابن عربي محيي الدين،**

2003، صفحة 20) وهذه الحادثة لها أثر بليغ على حياة ابن عربي، ولعلها كانت سببا قويّا في اعتنقاه التصوف، لأنه وصل إلى مرحلة الموت ثمّ عاد منها، وغالبا ما يكون المرض مؤشرا للتوبة والعودة إلى الله لأن الإنسان يحس بالضعف وبنهاية حياته، فيندم على ما فاته من الخيرات، وبمجرد وجود فرصة أخرى يسارع في استدراك تلك الطاقة الروحية.

ووجود والده إلى جانبه وهو يقرأ سورة يس مؤشر آخر على تلك النعمة التي حظي بها ابن عربي، وهي الأسرة الطيبة الورعة التي كرست حياتها في طاعة الله ومحبته، وقد كان والده رجلا صوفيا تقيا ينتمي إلى طريقة صوفية، وله كرامات تدل على استقامته، حيث ذكر ابن عربي جزءا منها وهو على فراش الموت فقال: «..فإنا دفناه على شك مما كان عليه في وجهه من صورة الأحياء، ومما كان عليه من سكون عروقه وانقطاع نفسه من صورة الأموات، وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته، وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان، فلما كان يوم موته وكان مريضا" شديد المرض" استوى قاعدا غير مستند وقال لي: يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء، فقلت له: كتب الله سلامتك في سفرك هذا، وبارك لك في لقاءك" ففرح بذلك وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيرا » **(ابن عربي محيي الدين، 2003، صفحة 21)** .

إن الحديث الذي جرى بين ابن عربي ووالده قمة في التحاور الروحي، فكلاهما يدركان لغة الخطاب الروحي وأن غاية الطريق الصوفي هو لحظة اللقاء بالله، فلا مجال للحزن ولا للألم في حضرة المحبوب، فكيف لولد أن يستقبل تلك الكلمات من والد على وشك الموت والفراق، ويودعه بكلمات هادئة إلا إذا كان من زمرة الأولياء والصالحين، فالموت قدر محتوم على كل إنسان في الحياة، ولابد من التهيؤ لهذا اليوم، وركوب السفينة المنجية من الخواطر(الآثام والمعاصي) إلى بر الأمان، فبها تتحقق طمأنينة النفس وسلامها الروحي.

ثالثا-اللقاء مع كبار علماء الإسلام والمتصوفة :

قبل أن يحدث ذلك الاحتكاك بين ابن عربي وغيره من المتصوفة، فقد أقبل على قراءة كتب القوم (المتصوفة) كما فعل الغزالي في تلقيه العلم الذوقي عن علم وعمل، وكثرة الترحال التي يشهدها المتصوفة من مكان إلى آخر.

يقول ابن عربي : « دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد ابن رشد، وكان يرغب بلقائي لمّا سمع وبلغة ما فتح الله سبحانه وتعالى به عليّ في خلوتي، وكان يظهر التعجب مما سمع وبلغة ما فتح الله سبحانه وتعالى به عليّ في خلوتي، وكان يظهر التعجب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصدا منه حتى يجتمع بي فإنه كان من أصدقائه وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طر شاربي، فلما دخلت عليه قام من مكانه إليّ محبة وإعظاما فعانقني وقال لي: نعم! فقلت له : نعم ! فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم إني استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له: لا-فانقبض وتغير له وشك فيما عنده، وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟ قلت له: نعم.. ! لا.. ! وبين" نعم ولا" تطير الأرواح من موادها، والأعناق من أجسادها، فاصفر لونه، وأخذه الافكل، وقعد يحوقل، وعرفت ما أشرت به إليه» **(ابن عربي محيي الدين، 2003، الصفحات 23-24)** .

فابن رشد كان من أرباب الفكر والنظر العقلي، وقد فسر بعض المفكرين أن هذه المقابلة هي بمثابة نهاية عهد العقل وبداية عهد الذوق، وأن ما يمكن الوصول إليه بالذوق يختلف تماما عن ما يحققه العقل، ويرى المصباحي أن الغريب في هذه المقابلة : « التخلي السريع لابن رشد عن الاستمرار في المناقشة، بالرغم من أنه هو الذي سعى إليها ورغب فيها بشوق كبير، ولعل السر في ذلك راجع إلى أن ابن رشد شعر بأن خروجه من حلبته الخاصة، حلبة الفلسفة، إلى حلبة التصوف التي لا يجيد أدوات المكر فيها، جعلته غريبا فيها، لهذا فضّل أن يرجع بسرعة إلى قواعده النظرية بعيدا عن " الأفكل"(الرعدة من الخوف أو من

الغيرة) الذي أحدثه ابن عربي فيه» **(المصباحي محمد، 2012، صفحة 278)** ، فما وصل إلي ابن عربي في تجربته الذوقية يفوق إدراكه بالعقل، وهو بذلك على حسب ما قاله الباحثون في مجال التصوف الإسلامي قد فاق علماء عصره.

3. صفات أهل الطريق:

يصف ابن عربي أهل التصوف بقوله: « وما كان الطريق إلا بالقعود في مرابض الكلاب مجاهدة، وتحمل الأذى وكفة رياضة، والرحمة والشفقة والعطف على الفقراء والمساكين والمسلمين كافة تحقيقا، ومعرفة أين هم من صفة أهل الله ..فهم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وظهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللا من نسيج مودته..» **(ابن عربي محيي الدين، 2005، صفحة 20)**.

فهذه الصفات لا تكون إلا لنفس عرفت معنى المجاهدة بحق، وتأدبت بآداب الطريق فمبتغاها التقرب إلى الله ومحبته، والمحبة تستدعي ذكر الحبيب على الدوام، وللذكر مقام عظيم لدى المتصوفة، فهو الذي يوقظ فيك الروح، ويرفعك في الدرجات، وينور لك الدرب إنه مفتاح الوَلاية.

والذكر على ضربين: ذكر اللسان وذكر القلب، وبذكر اللسان يصل الإنسان إلى ذكر القلب كلما كان كاملا في حال سلوكه، وقيل: « ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أظل العبد فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه» **(القشيري أبي القاسم،، 2015، صفحة 358)** .

ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت، فالعبد مأمور بذكر الله فرضا أو ندبا، وجعل في مقابلته الذكر لقوله تعالى: «**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**»(البقرة: 152) ، فجعل

وجود ذكره عن ذكرنا إياه وكذلك حاله فقال تعالى« **إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**» فأنتج الذكر الذكر، وحال الذكر حال الذكر، وليس الذكر هنا بأن نذكر اسمه بل لنذكر اسمه من حيث ما هو مدح له وحمد، إذ الفائدة ترتفع بذكر الاسم من حيث دلالاته على العين لا في حقك ولا في حقه **(ابن عربي محيي الدين، 2006، صفحة 344)** .

وذكر القلب يكون باستحضار محبة الله وتعظيمه والشوق إليه، وهذا الحال لا يحدث إلا لخواص الناس وابن عربي مثلا يرى أن العلماء يستحضرونه في القوة الذاكرة، والعامة تستحضره في القوة المتخيلة، ومن عباد الله العلماء به يستحضرونه في القوتين معا، وله سر عجيب لا يدركه إلا خاصة الخاصة.

التصوف عند ابن عربي: «الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا وهي مكارم الأخلاق، وهو أن تعامل كل شيء بما يليق به ممّا يحمده منك ولا تقدر على هذا حتى تكون من أهل اليقظة، فإن قلت : وما اليقظة حتى أكون من أهلها ؟ قلنا: اليقظة الفهم عن الله في زجره فإذا فهمت عن الله انتهت فإن قلت: فما الانتباه؟ قلنا: هو زجر الحق عبده على طريق العناية، وهذا لا يحصل إلا لأهل العبودة» **(ابن عربي محيي الدين، 2006، صفحة 191)** والعبودة لدى الشيخ الأكبر هي التي تنسب إلى الله، لأن التي تنسب إلى النفس تسمّى بالعبودية.

ويذكر ابن عربي شرط النعوت بالتصوف ما يلي: « أن يكون حكيما ذا حكمة، وإن لم يكن فلاحظ له في اللقب فإنه حكمة كله فإنه أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه، حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية، وليجعل القرآن أمامه صاحب هذا المقام فينظر إلى ما وصف الحق به نفسه وفي أي حالة وصف نفسه بذلك الذي وصف نفسه، ومع من صرف ذلك الوصف الذي وصف به نفسه، فليقم الصوفي بهذا الوصف بتلك

الحال مع ذلك الصنف، فأمر التصوف أمر سهل لمن أخذه بهذا الطريق» **(ابن عربي محي الدين، 2006، صفحة 401)** .

4. طريق الوصول وآدابه :

لقد خاض محي الدين بن عربي طريقا شاقا للوصول إلى حضرة المحبوب، بعد مجاهدة ومكابدة روحية وتجربته تختلف عن تجربة بقية المتصوفة، إذ طرق الحق مفردة والسالكون طريقه أفراد، يقول ابن عربي: « مع أنّ طريق الحق واحدة فإنّه يختلف وجوهه باختلاف أحوال سالكيه من اعتدال المزاج وانحرافه وملازمة الباعث ومعيته، وقوة روحانيته وضعفها واستقامة همتها وميلها وصحة وتوجهه، وسقمه فمنهم من تجتمع له، ومنهم من تكون له بعض هذه الأوصاف، فقد يكون مطلب الروحانية شريفا، ولا يساعده المزاج» **(ابن عربي محي الدين، 2010، صفحة 123)** فهي تتعدد بتعدد الأنفس، ولها درجات وضوابط لابد للسالك أن يتقيد بها كاعتدال المزاج والاستقامة، من آداب الطريق ودرجات السلوك عند ابن عربي ما يلي:

4. 1.طلب العلم:

إنّ الدخول إلى حضرة الحق بالنسبة لمحي الدين بن عربي ليس بالأمر الهيّن، إذ يجب ترك الوسائط والأنس به، وأن لا يكون في قلبك ربانية لغيره، فهو الأول والأخير الأحق بالحب، يقول إسماعيل بن سودكين النوري عن ابن عربي : « سمعته رضي الله عنه يقول: المحل المختص لمحبة الحق سبحانه وتعالى، لا يصح أن يحب غير الحق، والمحل المخصوص لمحبة الخلق لا يصح أن يحب غير الخلق، بل كل شيء على حكمه ومرتبته، وتخصيص العارف عن غيره بتمييز هذه النسب ومعرفة مقتضياتها » **(النوري إسماعيل، 2011، صفحة 239)** ويشترط ابن عربي الأدب في المحبة، لأنه متى قامت المحبة في محل اقتضت بذاتها الأدب والموافقة والحب للمقامات الإلهية لأن الله وصف به نفسه، كما ذكر الصفات

التي يحبها الله في المخلوقين كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُ التَّوَابِينَ وَيُحِبُ المُتَطَهِرِينَ** ﴾ **(البقرة: 222)** وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُ المُفْسِدِينَ** ﴾ **(القصص: 77)**.

وحتى يتحقق هذا المقام لابد أولا من العلم بأسمائه وصفاته، يقول ابن عربي: « أول ما يجب عليك طلب العلم الذي به تقيم طهارتك وصلاتك وصيامك وتقواك، وما يفرض عليك طلبه خاصة لا تزيد على ذلك، وهو أول باب السلوك ثمّ العمل به ثمّ الورع ثمّ الزهد ثمّ التوكل » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 125)** فالعلم حسب الشيخ الأكبر يفتح أبوابا التدرج في السلوك، إذ بعد العمل يكون الورع ثمّ الزهد ثمّ التوكل على الله، وهي مقامات روحانية يمرّ بها السالك في سفره الروحي إلى الله.

وكما يقول ابن عربي في كتابه بلغة الغواص: « الرزق المحسوس للجسوم، والرزق المعنوي للأرواح العلوم، فهذا العلم طريق تعلمه التقوى، التي هي وصية الله لنا، ولمن قبلنا، كما قال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ وَصّيْنَا الذِينَ أُوتوُا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتّقُوا اللهَ** ﴾ **(النساء: 31)**، وجاء في التوارة : يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، العلم مجعول في قلوبكم، تأدبوا إليّ بآداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق النبيين، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغيظكم ويغمركم » **(ابن عربي محيي الدين، 2011، صفحة 60)** فقد جعل ابن عربي العلم رزق من الله، وهو العلم الرباني الذي لا يعطي إلا لخاصة الخاصة الذين أخلصوا دينهم لله، وجاهدوا فيه حق الجهاد، فهداهم سبله لقوله تعالى: ﴿**وَالذِينَ جَاهَدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ **(العنكبوت: 69)**.

4. 2.الرياضة:

يقول ابن عربي: « الرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق، وترك الرعونة، وتحمل الأذى » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 125)** ويشرح عبد

الكريم الجيلي هذا القول بقوله : «أي تنقيتها وتطهيرها ممّا لا يليق بها، واعلم أنه ما ثم خلق محمود إلا وهو مذموم بالنسبة إلى حال من الأحوال، وكل من قال: إن التخلي عن الأخلاق المذمومة عبارة عن إخراجها بالكلية وعدم استعمالها بوجه من الوجوه فهو جاهل بالحقيقة الإنسانية » **(الجيلي عبد الكريم ، 2011، صفحة 95)**.

ويبيّن ابن عربي الخصائص اللازمة للرياضة أو تهذيب الأخلاق أو آداب العزلة أو الاعتزال، حيث يقول: « فإذا اعتزلت الخلق فاحذر من وصولهم إليك وإقبالهم عليك، فإنه من اعتزل عن الناس، لم يفتح بابه بآية لقد قصد النّاس إليه، فإن المراد من العزلة ترك الناس ومعاشرتهم، وليس المراد من ترك الناس ترك صورهم وإنما المراد أن لا يكون قلبك ولا أذنك وعاء لما يأتون به من فضول الكلام فلا يصفو القلب من هذيان العالم، فكل من اعتزل في بيته وفتح بابه قصد الناس إليه، فإنّه طالب رئاسة وجاه، مطرود عن باب الله تعالى فالله الله تحفظ من تلبيس النفس في هذا المقام » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 125)**.

4. 3.الخلوة والذكر:

يقول ابن عربي: « أغلق بابك دون النّاس، وكذلك باب بيتك وبين أهلك واشتغل بالذكر –ذكر الله تعالى- » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 125)**، بأي نوع شئت من الأفكار أو الأذكار وأعلاها الاسم، وهو قولك الله الله لا تزد عليها شيئا ويحذر ابن عربي من طوارق الخيالات الفاسدة أن تشغل المريد عن الذكر **(الحسيني الحسيني معدي، 2013، صفحة 408)** .

تعد الخلوة بابا للوصول إلى الحق، حيث يصفو العقل والقلب من عوائق الدنيا وملذاتها، ويتفرغ للعالم الروحي، إذ كلما ازداد الذكر في الخلوة يتحقق القرب، والذكر طريق الوَلاية وهو المفتاح الذي تفتح به كل الأبواب، ومثل هذه

الحالات كثيرا ما يعيشها الصوفي بقلبه متوجها إلى ربه، فكان الأمير عبد القادر الجزائري يختلي بنفسه، ذاكرا ربه بقلبه لا بلسانه، وكلما ازداد دخل في حالة غيبة عن نفسه، وعن الخلق أجمعين، حاضرا بربه ، يقول الأمير عبد القادر الجزائري « جلست أذكر الله تعالى فصعقت وغبت عن العالم وعن الأصوات المرتفعة في المسجد بالتلاوة والذكر والأدعية وعن نفسي » **(الأمير عبد القادر الجزائري، 1967، صفحة 160)**.

ثمّ إنّ الله ما وصف بالكثرة شيئا إلا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيء إلا من الذكر **لقوله تعالى:** ﴿ **وَالذاَكرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذاَكِراَتِ** ﴾ **(الأحزاب: 35) وقوله تعالى:** ﴿ **اذْكُروا اللهَ ذِكْراً كَثِيراَ** ﴾ **(الأحزاب: 41)**، والذاكرون الله كثيرا هم صفوة الخلق، وهم على درجات يقول ابن عربي: « فالذكر من العبد باستحضار، والذكر من الحق بحضور لأنا مشهودون له معلومون وهو لنا معلوم لا مشهود، فلهذا كان لها الاستحضار وله الحضور، فالعلماء يستحضرونه في القوة الذاكرة، والعامة تستحضره في القوة المتخيلة، ومن عباد الله العلماء بالله من يستحضره في القوتين يستحضره في القوة الذاكرة عقلا وشرعا وفي القوة المتخيلة شرعا وكشفا، وهذا أتمّ الذكر لأنه ذكره بكله، ومن ذلك الباب يكون ذكر الله له » **(ابن عربي محيي الدين، 2006، صفحة 345)**.

وقد تحدث ابن عربي عن الخلوة المطلقة، وذكر آدابها وشروطها وهي عبارة عن : « الاستعداد الكلي على حسب ما تعطيه النشأة الإنسانية القابلة عند صفاتها، وتخلصها » **(الحسيني الحسيني معدي، 2013، صفحة 411)** ،وحددها من خلال قوله « فأما صفة البيت المخصوص بهذه الخلوة، فينبغي أن يكون بكل خلوة إن أمكن فهو أن يكون ارتفاعه قدر قامتك، وطوله قدر سجودك، وعرضه قدر جلستك ولا يكن فيه ثقب ولا كوة أصلا، ولا يدخل عليك ضوء رأسا، ويكون بعيدا من أصوات النّاس ويكون بابه قصيرا، وثيقا في غلقه، وليكن في دار

معمورة فيها ناس، وإن تمكن أن يبيت أحد بقرب باب الخلوة فهو أحسن » **(ابن عربي محيي الدين، 2007، الصفحات 39-40)** ويؤكد ابن عربي بالمجاهدة والرياضة في العزلة قبل الخلوة، حتى تتعود النفس على ذلك، فتصبح فارغة من المجاهدة والمكابدة متفرغة لذكر الحبيب.

4. 4.الالتزام باعتدال المزاج:

وذلك بأن يتحفظ المريد في الغذاء، يقول ابن عربي: « وتحفظ في غذائك، وحذر من الشبع ومن الجوع المفرط، والزم اعتدال المزاج، إنّ المزاج إذا أفرط فيه اليبس أدى إلى خيالات، وهذيان طويل » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 125)**.

يشرح عبد الكريم الجيلي قول ابن عربي بقوله: « وأبذل جهدك في أن يكون من وجه لا يربيك، فإنّ الورع في المطعم عماد طريق الله، ولا يصح السلوك ولا ينتج إلا به، أما الشبع فإنه يؤدي إلى النوم والكسل والحركة المستغنى عنها، وكثرة الكلام والغضب وفضول الجوارح، والجوع المفرط يؤدي إلى سقوط القوة ويبس الدماغ، وفساد الخيال، وانحراف المزاج » **(الجيلي عبد الكريم ، 2011، صفحة 100)**، فلا إفراط ولا تفريط في الشبع والجوع، بل لابد للسالك أن يعدل بهما، وإن كان الجوع يعدّ مسلكا لدى الكثير من المتصوفة، والغاية منه تهذيب النفس وتطهيرها لتزهد عن كل ملذات الدنيا، فقد سلك ابن عربي مسلك الوسط للعناية بالنفس .

ويحذر ابن عربي من الواردات التي ترد على قلب المريد وخيالاته، أثناء رياضته وخلوته، فقد تكون ملكية روحانية، أو واردات شيطانية خبيثة، ويفرق ابن عربي بين الواردات فيقول: « وذلك إنّ الوارد إذا كان ملكيا فإنه يعقبه برد ولذة ولا نجد ألما، ولا تتغير لك صورة، ويترك لك علما، وإن كان شيطانا فإنه يعقبه تهويس في الأعضاء، وألم وكرب وحيرة، وذلك بالأفكار الفاسدة، ويترك

تخبيطا فتحفظ، ولا تزال ذاكرا حتى يفزع الله عن قلبك وهو المطلوب » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 126)**.

4. 5.عدم السؤال عن ماذا:

بعد الخلوة والذكر تأتي هذه الدرجة، إذ لا يزال السالك ذاكرا لله حتى يفرغ الله عن قلبه وهو المطلوب حسب ابن عربي، بعدها يقول : « وحذر أن تقول ماذا فليكن عقدك عند دخولك إلى خلوتك إن شاء الله ليس كمثله شيء، فكل ما يتجلى لك من الصور وفي خلوتك ويقول لك: أنا الله فقل: سبحان الله أنت بالله واحفظ صورة ما رأيت واله عنها واشتغل بالذكر دائما » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 126)** فكل ما يراه السالك أو يسمعه في خلوته يجب أن لا يسأل عنه، بل لابد أن يستمر في ذكره، فهذه المشاهد فيها ما يكون روحاني، وفيها ما يكون شيطاني، وفيها ما يكون خيالي وقد حدثت مع الكثير من كبار سادة المتصوفة والأولياء كعبد القادر الجيلاني قدس الله سره، الذي تجسد الله الشيطان في هيئة نور وأحلّ له ما حرمه الله على عباده، فاستعاذ به الله ولعنه فاختفى في لحظته، وقليل من يتفطن لمثل هذه المواقف من السالكين، ولهذا جعل المتصوفة المشيخة من الأمور الضرورية في الطريق، ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه كما يقرون بذلك.

ويبيّن ابن عربي التفرقة بين الكشف الحسي والخيالي بقوله: « إذا رأيت صورة شخص أو فعلا من أفعال الخلق أن تغلق عينيك فإن بقي لك الكشف فهو في خيالك، وإن غاب عنك فإن الإدراك يعلق به في الموضع الذي رأيته فيه ثمّ إذا لهيت عنه واشتغلت بالذكر انتقلت من الكشف الحسي إلى الكشف الخيالي فتتنزل عليك المعاني العقلية في الصورة الحسية وهو تنزل صعب » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 126)**.

فليس ثمّ أعلى-**يقول ابن عربي**-: « من الكشف ولا أدنى من الحجاب، فالكشف غاية المطالب وهو الرؤية، والحجاب أعظم الحرمان وهو عدم الرؤية، وقد ظهر الحكمان في العالم فليس في الإمكان أبدع من هذا العالم يحصره بين التجلي والحجاب » **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 316)**.

4. 6.أن لا تطلب منه في خلوتك سواه:

يقول ابن عربي: « أن لا تطلب منه في خلوتك سواه ولا تعلق الهمة عنده وصمم على طلبك فإنه يبتليك ومهما وقفت مع ذلك فاتك وإذا حصلته لم يفتك شيء» **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 126)** فالسالك في الطريق، يتعرض لكثير من الاختبارات لمعرفة صدق نيته من عدمها، ومدى إرادته وعزمه للوصول، فلابد من الصبر والإلحاح حتى يتحقق مقامه الذي يريده، يقول ابن عربي: « فاعلم أنّ الله مبتليك بما يعرضه عليك فأول ما يفتح عليك أن أعطاك الأمر على الترتيب ما أقول لك وهو كشفك عالم الحس الغائب عنه فلا يحجبك الجدرات ولا الظلمات عما يفعله الخلق في بيوتهم، إلا أنّه يجب عليك التحفظ أن تكشف سر أحد عن أحد إذا أطلعك الله عليه، فإن بحت به وقلت: هذا زان وهذا شارب وهذا يغتاب فاتهم نفسك، فإن الشيطان قد دخل عليك فتحقق بالاسم وأوصه أن يستحي من الله، ولا يتعدى حدود الله واله عن هذا الكشف جهد طاقتك واشتغل بالذكر» **(ابن عربي محيي الدين، 2010، صفحة 126)**.

الكشف من الكرامات التي يعطيها الله لعباده الصالحين والمخلصين في طريقه، وهي مرتبة عظيمة لابد للسالك أن يحفظ سرها، فما إن صرّح بما كشفه الله له للخلق، أو فضح سر أحد قد تذهب هذه الكرامة لأنّ من شروطها عدم البوح بها، إذ لابد أن يتأدب السالك اتجاه ربه ويحفظ ما أعطاه إياه.

5. خاتمة:

لقد بدأ التصوف منذ نشأته علما للأخلاق، يهتمّ بباطن الإنسان عكس ما ذهبت إليه بقية العلوم الأخرى، والأخلاق في جوهرها ليست سوى مجموعة من القيم الفاضلة التي حثت عليها جميع الأديان، وخصها الإسلام بوحي سماوي لتنظيم حياة الإنسان، وجاء التصوف ليجسد هذه القيم من خلال مقامات وأحوال يمرّ بها السالك في سفره الروحي، وعلى تعدد السالكين في الطريق تختلف تجربتهم من صوفي إلى آخر، وكان محيي الدين بن عربي قامة من قامات التصوف الإسلامي، ولقبه أتباعه بالشيخ الأكبر لما وصل إليه من مراتب اليقين والعبادة والوَلاية، و تحديده لآداب السلوك في الطريق لم يكن إلا تأدبا للمحب في حضرة المحبوب، وتزكية للنفس وتطهيرها، ويمكن ذكر أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الورقة العلمية كالآتي:

1-إنّ غاية التصوف الإسلامي هو وصل القلوب بالخالق، وتهذيب النفوس وإصلاحها.

2-الصفاء الروحي لا يتمّ إلا بالترقي عبر مراحل معيّنة.

3-لم يقتصر التصوف لدى ابن عربي على المعرفة الذوقية فقط، بل له أبعاد تربوية وأخلاقية.

4-السلوك لدى ابن عربي عبارة عن رياضة روحية تؤدي إلى الفناء، وهو غاية المتصوف وفيه يشرب من رحيق الحب الأعلى.

5-لا تخلو آداب السلوك لدى المتصوفة من السلبيات والإيجابيات.

6- ضرورة العودة إلى التراث العربي الإسلامي والاهتمام به .

6. قائمة المصادر والمراجع:

1-ابن عربي محيي الدين. (2005). روح القدس في محاسبة النفس، ط1، ، . دمشق: دار البيروني.

2-ابن عربي محيي الدين. (2006). الفتوحات المكية، تحقيق أحمد شمس الدين، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية.

3-ابن عربي محيي الدين. (2011). بلغة الغواص في الأكوان إلى معدن الإخلاص في معرفة الإنسان، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

4-ابن عربي محيي الدين. (2007). تنبيهات على علو الحقيقة المحمدية تحقيق: عاصم ابراهيم الكياني. بيروت: دار الكتب العلمية .

5-ابن عربي محيي الدين. (2010). رسالة الأنوار. بيروت: دار الكتب العلمية .

6-ابن عربي محيي الدين. (2010). كتاب المسائل ط2 تحقيق: عبد الكريم النمري. بيروت: دار الكتب العلمية.

7-ابن عربي محيي الدين. (2003). لتجليات، تحقيق: ماردیني عبد الرحيم، ط1. بيروت: دارآية.

8-الأمير عبد القادر الجزائري. (1967). المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ط3. دمشق: دار النهضة العربية .

9-الجيلي عبد الكريم . (2011). الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار لابن عربي تحقيق: عاصم ابراهيم الكياني. بيروت: دار الكتب العلمية.

10-الحسيني الحسيني معدي. (2013). موسوعة صوفية. بيروت: دار المنهل.

11-القشيري أبي القاسم،. (2015). الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، جزء1، ط2،، . القاهرة: دار الكتب المصرية.

12-المصباحي محمد. (2012). نعم ولا " الفكر المنفتح عند ابن عربي، ط1. الجزائر: منشورات الاختلاف.

13-النوري إسماعيل. (2011). وسائل السائل عن الشيخ ابن عربي ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

14-بلعلى آمنة. (2010). تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ط1، .. الجزائر: منشورات الإختلاف.

15-عواضة نزهة، . (2017). *الأنوثة في فكر ابن عربي*، . دار الساقي.